موقف إقبال من التصوف*

ميلود خلف الله*

الملخص :

محمد إقبال : الأب الروحي لدولة باكستان الحديثة ، مفكر إسلامي ذاع صيته و فكره وتراثه في مشارق الأرض ومغاربها واهتم بشؤون الحضارة الإسلامية، نشأة وصعودا وأفولا، ودعا المسلمين إلى العودة إلى الفكر والتراث لصياغة عالم جديد ومدنية أكثر إنسانية ، توفي سنة 1938 في التاسع من شهر أبريل.

الكلمات المفتاحية: محمد إقبال . التصوف . الحضارة الإسلامية . الفكر الإسلامي . الهنود . العجم . الفرس.

Abstract :

Muhammad IKBAL poet, thinker and philosopher, lived in the Indian subcontinent environment. This environment contains many cultures: Western, Indian and Islamic. Each one of them has a position of mysticism. IKBAL could master all the civilizations; he had a critical position of mysticism: he accepted the part that built civilization and man and rejected laziness, underdevelopment and return back.

Key words: Muhammad IKBAL, mysticism, Islamic, Indian ,civilization

تمهيد:

التصوف نزعة إنسانية عرفتها الأمم والحضارات والفلسفات والأديان فقد وجد التصوف وعرف المتصوفون منذ القديم عند اليونان والفرس والهنود كما ظهر ذلك بين أهل الأديان السماوية: اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

والتصوف في المفهوم العام يراد به تلك النزعة الإنسانية والروحية التي وجدت مع الإنسان من قديم والتي كان أساسها الزهد في الدنيا ، وغايتها الاتصال

* محمد إقبال : الأب الروحي لدولة باكستان الحديثة ، مفكر إسلامي ذاع صيته و فكره وتراثه في مشارق الأرض ومغاربها واهتم بشؤون الحضارة الإسلامية، نشأة وصعودا وأفولا، ودعا المسلمين إلى العودة إلى الفكر والتراث لصياغة عالم جديد ومدنية أكثر إنسانية، توفي سنة 1938 في التاسع من شهر أبريل.

* جامعة محمد خيضر، بسكرة .

بالملأ الأعلى مصدر كل خير وفيض وإشراق [1].

أولا: التصوف الإسلامي نشأته وتطوره

لقد نشأ التصوف الإسلامي حقائق إيمانية عميقة ، وسلوك إسلامي سام ، فهو سعي نحو جعل الإيمان النظري شعورا نفسيا غامرا ، وتحويله من عقل يتصور إلى قلب يعي ويتحرك. وتهذيب للنفس بتنزيهها عن الرذائل ، وتحليلها بالفضائل والاتقاء لقبول الله ورضوانه كما أنه نظر إلى الوجود الصغير في هذه الحياة على انه جزء من الوجود الأكبر الممتد بعد الموت[2].

وقد تجلت هذه الحقائق والصفات في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تطبيقا لتعاليم القران و هداياته ، كقولة سبحانه وتعالى﴿ **قدافلح من زكاها وقدخاب من دساها**﴾الشمس/ 9، 10.

وقد كان الصحابة ، والمسلمون في العهود الأولى يعبدون الله ويذكرونه ، ويغمر حبه قلوبهم ، ويؤثرون الدار الآخرة على الدنيا الفانية ، وكانوا مع ذلك ينتشرون في الأرض يبتغون من فضل الله ويكدحون في طلب الرزق ، ويجاهدون في سبيل الله كل ذلك في توازن وتكامل يعكس عندهم الصورة الحقيقية للإسلام ، كما جاء به القران وتجسد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وحث عليه في سنته ، دون فصل بين إيمان وإسلام وإحسان.

ولم يكن هؤلاء يسمون بالتصوف ، ولا كان هناك شيء بعد ذلك يسمى بالتصوف ، والطرق الصوفية[3] ، فكيف نشأ التصوف الإسلامي علما مستقلا إذن ؟

نبادر فنقول إن جمع حقائق ما ، أو جانب من جوانب الثقافة تحت اصطلاح علمي أمر معهود ومألوف في الحضارات الإنسانية ، وتاريخها العلمي والثقافي... وقد ظهرت في تاريخ الإسلام العلمي والثقافي ،

ونشأت مجموعة من العلوم الشرعية واللغوية حسب الحاجة ، وتكيفا مع طبيعة التطورات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، وقد تكاملت هذه العلوم وتساندت على شرح رسالة الإسلام (إسلاما وإيمانا وإحسانا).

ولم يكن التصوف بظهوره في الإسلام علما مستقلا له موضوعه ومنهجه والمختصون فيه بدعا من العلوم ، فكما أدت الحاجة إلى ظهور النحو والعروض مثلا في العربية ، ونشأة علم الكلام والعقيدة الإسلامية للدفاع عن عقائد الإسلام ، وعلم الفقه وأصوله للاستجابة لنمو المجتمع في حياته العلمية وتعقده الحضاري ، فقد ظهر التصوف في حضارة المسلمين ، ونشأ فردا من أفراد أسرة العلوم الإسلامية

ليسد الحاجة لرسم المنهج الإسلامي للحياة الروحية والتربية الأخلاقية والسلوك الصحيح إلى الحق تبارك وتعالى ، ووصف مراتب النفس ، ومراحل تزكيتها وتشخيص أمراض القلب وعلاجها وتخليصه من الرذائل ، وإرشاده إلى الفضائل(4) .

فظهور التصوف علما مستقلا كان أمرا واقعيا ، وتطورا طبيعيا فقد كان أصله كما يقول ابن خلدون:« أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق و الهداية.... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة »(5) ، فهو إذا مواجهة لواقع ، زاد من حيويتها والحاجة إليها تأكيد الفقهاء من الناحية الظاهرية و المتكلمين عن الجاني العقلي ، فكان لا بد من نفير طائفة لحماية روح الإسلام والعناية بالأحكام الشرعية المتعلقة بالباطن وأحوال القلب ، فكما يقول« جاويد إقبال »فقد ظهر التصوف في صورة احتجاج أو ردة فعل ضد المذهب الشكلي والمذهب العقلي والنفاق ليعاد إضرام نار العشق في قلوب الرجال(6) .

ولظهور التصوف بالوصف المذكور أسباب سياسية واجتماعية أيضا برزت بعد انهيار الحكم الراشدي ، والدولة الإسلامية الأولى.

لكن الذي ينبغي التأكيد عليه أن التصوف في نشأته الأولى كان إسلاميا بحتا ، ولم يكن بشكل من الأشكال تأثرا برهبانية مسيحية أو فلسفات دخيلة ، فهو لم يكن أكثر من ثمرة طبيعية للمبادئ الأخلاقية والأهداف الروحية التي رسمها القران للحياة البشرية ، وجسدها واقعيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في حياتهم.

ولذلك فما يمكن أن يوجد من اشتراك وتشابه بين المعاني الروحية في الإسلام والنصرانية ، ليس دليلا كما يتوهم جولد زيهر أو نيكلسون أو غيرهم من المستشرقين وغيرهم من دارسي التراث الإسلامي وثقافته(7) ، على تأثير الرهبانية المسيحية في الزهد الإسلامي ، لأن في ذلك جهلا وتغافلا عن الأصول الإسلامية لتلك المعاني ، وعما يميز هذه الأصول ، وعن الأطر التي ترد ضمنها تلك القضايا الجزئية من وسطية الإسلام واعتداله ، وإقامته للتوازن بين المادة والروح ، والواقع والمثال.

والسؤال الذي يكون جوابا لمثل هذه الإدعاءات هو هل من أهداف القران أو مقاصد الإسلام نقض ونسخ كل ما جاءت به المسيحية؟! وهل على الإسلام حتى يكون أصيلا فيما يحتويه من معاني روحية مثلا أن لا يشبه ما جاء له شيئا من ما هو في المسيحية أو غيرها من الأديان ، بل والفلسفات والأفكار ، مهما كان صائبا أو فطريا؟!

لا شك أن الإسلام جاء معريا للكذب على الله وفاضحا للافتراء على رسله الكرام مما خطته أيدي الذي يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، لكن من الطبيعي أن نجد فيه تصديقا لما بقي من الحق في الدين الذي أوحاه تعالى إلى عيسى عليه السلام ، فلا ريب إن الحقائق لا تتعارض ، كيف وهي تصدر جميعها من مشكاة النبوة ، وتنبع كلها من منبع الحق !؟

والواقع أن الفرق شاسع بين رهبانية تهرب من الدنيا وتسحب من حركة الحياة ، وتصوف إسلامي يرى خوض معركة الحياة عبادة ، وفرصة لفل الخير والتزود للقاء الله [8] ، وكما تظهر أصالة هذا التصوف الإسلامي في سلوك العباد والزهاد في الإسلام ، وخوضهم لمعارك الإصلاح والتغيير والعمل والجهاد ، فإنها تظهر في آثارها وأقوالهم.

فهذا الإمام الجنيد سيد الطائفة يقول: « من لم يحفظ القران ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدي به في هذا العلم ، لأن علمنا ومذهبنا مقيد بالكتاب والسنة »[9] ، ويعرف الإمام عبد القادر الكيلاني الصوفي بقوله: « الصوفي من صفى باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[10] ، ويقول أبو سليمان الداراني: « ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل شيء منها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة »[11] .

ويقول دون النون المصري : ومن علامات المحب لله سبحانه وتعالى متابعة حبيب الله ، محمد صلى الله عليه وسلم في أفعاله ، وأخلاقه ، وأوامره وسننه » [12] .

ولكن الواقع الذي ينبغي أن يذكر أن التصوف شهد تطورات لم يحافظ فيها على صفائه الأول ، وسلامة انضباطه بمصادره الإسلامية النقية ، فقد أثرت فيه إلى جوار العوامل الإسلامية الأولى عوامل أجنبية ، وتيارات غربية ، وأفكار دخيلة على روح الثقافة الإسلامية كالرهبانية المسيحية ، والفلسفة الهندية الفيدانتاوية ، والبوذية ، والمذهب الباطني الفارسي ، والفلسفة الأفلاطونية[13] .

وقد أدى هذا التطور إلى الانتهاء ببعض أنواع التصوف إلى انحرافات وتبني نظريات الحلول والإتحاد ووحدة الوجود وغيرها من الفلسفات الهندية واليونانية[14]، ليتحول التصوف من خبرة وتجربة دينية إسلامية وتربية عملية سلوكية مصادرها القرآن والسنة إلى نظام ثيوصوفي روحي ، وتصوف فلسفي على يد كثير من رجاله أمثال: السهروردي ، وابن عربي وابن سبعين وغيرهم

ولا يعني هذا الانحراف أن التصوف الإسلامي النقي المحرر قد فقد نهائيا ، وأن الساحة قد خلت من التيار الصوفي الإسلامي الصادق المنضبط بضوابط

الشريعة ، بل لقد استمر ذلك التيار عند الكثيرين من أمثال الإمام عبد القادر الجيلاني والسيد أحمد الرفاعي وأبي القاسم القشيري ، وابن تيمية وابن القيم ، وأحمد السرهندي ، فقد كان لظاهرة التصوف الفلسفي والأعجمي بأفكارها المنحرفة رد فعل قوي قام به هؤلاء الأئمة في تزييف وحدة الوجود ونظريات الإشراق والحلول والرد على أصحابها ، وبيان انحرافها عن الإسلام ، وانفلاتها عن ضوابط الشريعة ومنطلقات العقيدة الإسلامية وتصوراتها حول الكون والإنسان(15) .

ثانيا : علاقة إقبال بالتصوف

بعد هذه النبذة الموجزة المقتضية عن التصوف الإسلامي في نشأته الأولى وتطوره العام ، فإن الذي نريد معرفته والوقوف عليه هنا هو ما علاقة إقبال بالتصوف ، وما موقفه قبولا ورد من أفكار وأراء الصوفية ولماذا اهتم إقبال بالتصوف حتى صارت أفكاره وآراؤه حوله تمثل محورا جوهريا في فلسفته وشعره وفهمه لأمجاد المسلمين وحضاراتهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن في حياة إقبال و أسرته ميل شديد إلى التصوف.

فإقبال ورث التصوف من انحداره من أسرة كان جدها الأعلى البراهماني (لول حاج) الذي اعتنق الإسلام في القرن الرابع عشر واحدا من مشايخ الطرق الصوفية البارزين في (كشمير) ، وكان بعض أسلاف إقبال من الصوفية ، ولبعضهم كتابة وتأليف في ذلك ، ولما كان والد إقبال صوفيا ، وأسرته على علاقة متينة بالتدين ، فقد أثر ذلك في ارتباط إقبال منذ طفولته بالطريقة القادرية نسبة إلى الصوفي والعالم الجليل عبد القادر الجيلاني.

فنشأة إقبال وتربيته كانت في أحضان النزعة الصوفية والتدين العميق ، والعبادة وقراءة القران. ومن ذلك الملفت للانتباه أن إقبالا قد زادته إقامته في أوروبا نزوعا إلى التصوف وهو يشير إلى ذلك حيث يقول: « إني بفطرتي أنزع إلى التصوف ، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعا إليه... » (16) .

ثالثا: تطور موقف إقبال من التصوف

إن الدارس لحياة إقبال وفكره ، يرى من يتهمه بمعاداة التصوف ومحاربته ، ومن ينسب إليه الانتماء إلى التصوف الفلسفي والقول بوحدة الوجود ، وبين هذه الآراء المتطرفة كثيرا ما تضيع الحقائق ويغتال الإنصاف ، وإن كان التطرف في الحكم على العظماء والغلو في تقييمهم بين إفراط وتفريط وتقديس وتدنيس بات أمرا مألوفا ومسلكا معهودا له أسبابه وتفسيراته و دوافعه النفسية والاجتماعية ، عرفته حياة وأعمال وأراء أعظم العباقرة والكبار في التاريخ.

فهل فعلا انسلخ إقبال من التصوف وانقلب عليه محاربا ومعاديا بعد تلك التربية الصوفية ، أم أنه لم يكن صوفيا ممارسا فقط ، بل قائلا بوحدة الوجود؟

إن حل الإشكال يمكن في معرفة التطور أو المراحل التي تنقل بينهما إقبال في نظرته إلى التصوف وفهمه له ، وخاصة موقفه من وحدة الوجود.

ويمكن في هذا الصدد رصد مرحلتين مختلفتين[17] ، مر بهما في هذا الشأن إقبال ، فحاول تجلية معالم كل منهما في الفقرتين الآتيتين:

المرحلة الأولى:

يتجدد زمن هذه المرحلة في الفترة التي سبقت نشر ديوان أسرار الذات سنة 1915، فقد كان إقبال في هذه المرحلة من حياته متأثرا أشد التأثر بالتصوف والزهد المنتشر في بيئته الإسلامية الهندية ، كما كان متأثرا بالتيار السائد في فهم وشرح أقوال أعلام التصوف كالرومي والحلاج وغيرهما. فلم يكن غريبا أبدا أن يجد القول بالإتحاد والفناء طريقه إلى نفس إقبال وأن يكون إقبال مرتبطا بالتصوف الوجودي ، بانيا لأفكاره على أساس نظرية وحدة الوجود[18] ، وهو في بيئة انتشر فيها فكر هذه النظرية بسبب تبني الشعر الفارسي لها وانطباعه بطابعها ، وقد كان النموذج الفارسي هو المتبع والأقوى تأثيرا في الهند ، يقول إقبال عن محاولة إثبات وحدة الوجود والنجاح في نشرها : « خاطب فلاسفة الهند العقل في محاولتهم إثبات وحدة الوجود ، وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشد خطرا وأكثر تأثيرا حتى أشاعوا هذه الفكرة العامة ، فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل »[19] .

ولعل الذين نسبوا إلى إقبال القول بوحدة الوجود بالمعنى الصوفي إنما حكموا عليه حكما جزئيا ناقصا نظريا إلى هذه المرحلة من حياته.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي تبدأ منذ نشر إقبال لديوانه أسرار الذات ، فقد شهد فكر إقبال ونظرته إلى التصوف تحولا واضحا ، لا سيما حول أفكار كالفناء والحلول والإتحاد .

ويوضح إقبال سبب هذا التحول والتغيير الذي حدث في موقفه واتجاه شعره ، مبعدا أن يكون ذلك نتيجة لدراسته المعمقة للفلسفة الغربية ودراسته في أوروبا فيقول: « إني بفطرتي وتربيتي أنزع إلى التصوف ، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعا إليه. فإن هذه الفلسفة في جملتها تنزع إلى وحدة الوجود ، ولكن تدبر القرآن المجيد ، ومطالعة تاريخ الإسلام بإمعان عرفاني غلطي ، وبالقرآن عدلت عن أفكاري الأولى وجاهدت ميلي الفطري وحدت عن طريقة أبائي » [20] .

إذا فسبب هذا التحول هو مزيد من المراجعة والنقد الذاتي ، والبحث عن الحقيقة من خلال تدبر القرآن ودراسة تاريخ الإسلام. دراسة واعية ومتمعنة ، كشفت لإقبال ما في ذلك النوع من التصوف من انحراف وزيف ، وأفكار تأباها روح الإسلام ، ولعلى سببا آخر جعل إقبال لا يشك بحسه النقدي المرهف في جدوى هذه الأفكار ، وهو ما أورثته من نتائج وخيمة في وقع المسلمين الذين دب في أوصالهم الضعف والهزال ، وعمهم التخلف والخمول ، وروح التواكل والانهزام .

وهذا التحول والموقف الجديد من التصوف الوجودي والذي برز في الانتقادات التي وجهها إقبال لبعض الأسماء الصوفية المقدسة ، وظهر بقوة في نشر إقبال لديوانه أسرار الذات هو الذي كان وراء انتقاده من طرف كثير من مشايخ الصوفية والنقاد بأنه يعادي التصوف ويحاربه ، فقد احتوت الطبعة الأولى من ديوان الأسرار ـ مثلا ـ قطعا شعرية تنتقد بقوة مفهوم الحياة عند الشاعر الصوفي الفارسي الشهير حافظ الشيرازي الذي يلقبه الصوفية (لسان الغيب) ، ويعدونه قمة من قممهم[21] .

والواقع أن الغلو والتقليد الأعمى حجب عن هؤلاء الرؤية المتزنة ، وحرمهم الموقف المنصف من انتقادات إقبال وموقفه من التصوف ، وكان عليهم أن يتعرفوا في حياد ويتساءلوا معنا عن الموقف الحقيقي لإقبال من التصوف ، هل كان إقبال حقا معاديا للتصوف مطلقا ، أم أنه كان بانتقاداته يريد إنصاف التصوف نفسه ، وتحريره مما شابه من دخن ، وبذلك تتحول انتقاداته إلى عملية نقد ذاتي وإعادة بناء داخلي ، ودفاع ومحافظة وتجديد للتصوف نفسه ، إذا ما التصوف الذي رفضه إقبال ووجه إليه الانتقادات اللاذعة؟ وما هو التصوف الذي قبله ودعا إليه؟...

رابعا: التصوف الذي يرفضه إقبال

كما ذكرنا فإن إقبالا كان صوفيا فطرة وتربية وقد ضل إقبال متصوفا مؤمنا بالمعرفة الصوفية في حياته كلها ، لكنه في مرحلته الثانية تناول بعض الاتجاهات الصوفية السائدة بالنقد والتمحيص ، بل والسعي إلى هدمها والثورة عليها.

فقد وجد إقبال أن التصوف السائد عجز عن تكوين إنسان القران الحر الفعال ، بل إنه قد أدى إلى تكوين مسلم ميت ضعيف ، لا وزن له ، وشعر بأن مثل هذا التصوف كفيل بالقضاء على المسلم وعلى إقصاء تأثير روح الإسلام والثقافة الإسلامية ، وتوجيه العقيدة الإسلامية. عن لعب دورها في حياة المسلم وبناء الإنسان الكامل ، بل رآها كفيلة بإلغاء الشريعة الإسلامية والتحلل منها.

ولذلك نجده ينتقد التصوف السلبي أو ما سماه هو بالتصوف التزهدي ، ويرفض الرهبانية ، ويثور على وحدة الوجود وما يتبعها من الإتحاد والحلول

والفناء ويناقشها مناقشة نظرية في ضوء القران والتطبيق النبوي الواقعي لتعاليمه ، كما أنه ينتقد من الناحية العلمية بعض المظاهر السيئة للتصوف الكاذب والمتاجرة بالدين والزهد...

فالتصوف التزهدي كما يعبر إقبال نشأ متأثرا بطابع غير إسلامي فهو يقول عنه: « ...ثم كانت نشأة التصوف التزهدي ونموه متأثرا في تطوره التدريجي بطابع غير إسلامي »(22).

ويقرر إقبال مخالفة النزعة الرهبانية لحقيقة الإسلام ، ويذكر مصادر التصوف الأعجمي الدخيلة على الثقافة الإسلامية فيقول: « إن الرهبانية ظهرت في كل أمة ، وعملت لإبطال الشريعة والقانون ، والإسلام في حقيقته هو دعوة إلى مخالفة الرهبانية. والتصوف الذي شاع بين المسلمين ــ أعني التصوف الأعجمي ـ أخذ من رهبانية كل أمة ، وجهد في أن يجذب إليه كل نحلة ، حتى القرمطية التي قصدت إلى التحلل من أحكام الشرعية »(23) ، وفي نقد لاذع وفاضح للباطنية والغنوسية ، وتنبيه للأمة الإسلامية يقول إقبال: « الحق أن التماس معان باطنية في قانون أمة هو مسخ لهذا القانون كما يعلم من سيرة القرامطة ، ولا تختار هذه الطريقة إلا أمة في فطرتها الخنوع والذلة »(24).

إذن فالتصوف الذي يرفضه إقبال دخيل المصادر عن روح الإسلام ، يسلك سبلا مبهمة وغامضة وغير مضبوطة ، ويقصد إلى التحلل من أحكام الشريعة...

ويتتبع إقبال أسباب هذا التصوف الأعجمي الغريب عن روح الإسلام ويرد ذلك إلى الأفكار الفلسفية التي تسربت إلى المسلمين ، ولذلك نجده في معظم تراثه الفكري ، وفي فلسفته حول الذات ينتقد الفيلسوف اليوناني أفلاطون ويراه أساس فكرة وحدة الوجود التي انتقلت منه إلى الفكر الإسلامي ولاسيما عبر الفلسفة الهندية والفارسية ، وفكرة وحدة الوجود لم تظهر في صورة نظرية كاملة متسقة قبل محي الدين بن عربي ، وهو لحد الآن الممثل الأكبر لهذا المذهب(25) ، ولذا نرى إقبالا ينتقده ويحمله المسؤولية في ذلك حيث يقول: « جاءت رسالة الإسلام ، فكانت دعوة بليغة إلى العمل... ولكن تشابها عجيبا في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي سيظهر عند بحث هذه المسألة ، فالفكرة التي فسر بها (شينكر أجاريه) كتاب الجيتا ، هي الفكرة التي فسر بها القرآن محي عنصرا في الفكر الإسلامي ، واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني وفخر الدين العراقي »(26)، في حضارة المسلمين .

وعلى الرغم من دقة المسألة وخطورتها فإقبال يرينا نموذجا لأدب الاختلاف ، والنقد البناء ومستوى رفيعا وأفقا رحبا حيث يقول في رسالته إلى

السيد حسن نظامي موضحا رأيه في ابن عربي وفلسفة: « لا أنكر عظمة الشيخ وفضله ، بل أعده من كبار فلاسفة المسلمين ، ولا أرتاب في إسلامه فإنه يحتج لعقائده ، كقدم الأرواح ، ووحدة الوجود بالقرآن مخلصا ، فآراؤه على صوابها أو خطئها قائمة على تأويل القرآن ، وأرى أن تأويله غير صحيح ، فأن أعده مسلما مخلصا ، ولا أتبعه في مذهبه »(27) .

ويرى إقبال أن من أسباب انتشار التصوف القائم على وحدة وجود الخلط عند المتصوفة بين التوحيد ووحدة الوجود فيقول:« وأصل المسألة أن الصوفية ـ أخطئوا خطأ كبيرا في فهم التوحيد ووحدة الوجود ، ليس هذان الاصطلاحان ، مترادفين كما توهموا .

فالأول مفهوم ديني ، والثاني فلسفي محض ، ليس التوحد ضد الكثرة كما يضن بعض الصوفية بل هو ضد الشرك ، وأما وحدة الوجود فهي ضد الكثرة ، وكانت نتيجة هذا الغلط أن عد من الموحدين طائفة ذهب والى وحدة الوجود أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوروبا الحاضرة على حين أن المسألة التي ذهبوا إليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم »(28) .

وبناءا على ذلك فإن إقبالا يصرح ببعد وحدة الوجود عما جاء به القران والتعاليم الإسلام فهو يقول في وضوح: « إن تعليم الإسلام واضح بين هو أن ذاتا واحدة تستحق العبادة وأن كل الكثرة التي ترى في العالم مخلوقة... ليست عقيدة وحدة الوجود من تعليم القران الذي يبين مغايرة التامة بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود »(29) .

وقد كان من نتائج فكرة وحد الوجود القول بالفناء والحلول والسكر مما يقتل دور إرادة الإنسان وفعالية وجوده ، وإن كان لهذه المصطلحات معان إيجابية عند أهل التصوف الدقيق(30) ، فقد اتخذت لها اتجاهات سلبية في التصوف الوجودي فلذلك نجد إقبالا يرفض الفناء والسكر والحلول ويدعو إلى إثبات الذات والى الصحو ، ويحذر المسلمين ، من دعاته فيقول: « احذر حافظا أسير الصهباء فإن في كأسه سم الفناء... ذلكم فقيه ملة المدمنين ، وإمام أمه المساكين ، شاة علمت الغناء والدلال...وهو اذكر من شاة اليونان ، ونغمه عوده حجاب الأذهان(31) ، فهو ينبه إلى الضعف الذي جلبته هذه الأفكار حتى تجعل صاحبها كالشاة ، ويرمز لتأثير أفلاطون (شاة اليونان) في التصوف السلبي الوجودي ، وينتقد بشدة شعراء الضعف والتصوف الأعجمي.

كحافظ الشيرازي وغيره ، ويقدم تحليلا نفسيا عميقا للميل لهذه الأفكار

المخدرة ، ففي نظره « كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي ، وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين... تتبدل أنظارها ، وتجمل الاستكانة في أعينها ، وتركن إلى ترك الدنيا ، وفي هذا الترك تخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء »[32] ، ويقول: « إن حالة السكر تنافي الإسلام وقوانين الحياة ، وحالة الصحو ، وهي الإسلام ، توافق قوانين الحياة ، وإنما قصد الرسول صلى الله عليه وسلم ﷺ إنشاء أمة صاحية ، ولهذا نجد في صحابته الصديق والفاروق ، ولا نجد حافظ الشيرازي »[23] .

وكما يرفض إقبال الإتحاد وتشبيه الخالق بالمخلوق ، والفناء وتأليه الإنسان وحلول اللاهوت في الناسوت كما في المسيحية والتصوف المرفوض ، فإنه يؤمن بوحدة الشهود التي تقوم على أساس الاتصال بين العبد وربه ، وهو اتصال روحي صوفي يقوم على فكرة الثنائية بين الخالق والمخلوق ، والمحبة المتبادلة بين العبد وربه [34] ، ولو وقف أهل التصوف عند وحدة الشهود لتحقق لهم السمو الروحي وكمال التوحيد ، والتصوف الإسلامي الرفيع المنبثق عن العقيدة الإسلامية القرآنية... فالتصوف الذي يرفضه إقبال هو تصوف الانسحاب من المجتمع والعزلة عنه ، وتصوف داع إلى ترك الدنيا واعتبار الحياة والكون غير حقيقيين ، ومشجع على تطوير موقف هروبي من الحياة ، ومؤمن بمثل مدمرة للحياة وداعية إلى نكران الذات وإفنائها وهو ما ستنافى والعقيدة الإسلامية ، ويتناقض مع تعاليم القران ، ويختلف عن سيرة رسول الله ﷺ ، ومقاصد رسالته...

خامسا: التصوف الذي يدعو إليه إقبال

لكي نعرف مكانة التصوف عند إقبال ، وتصوره لمعناه ، نطلق من تقسيمه للحياة الدينية إلى ثلاثة أطوار ، طور الإيمان ، وطور الفكر ، وطور الاستكشاف.

ففي طور الإيمان تبدو الحياة الدينية في صورة نظام نخضع له خضوعا مطلقا دون نظر عقلي ، وهذا الاتجاه له أثر كبير في التاريخ الاجتماعي والسياسي ، ولكنه قليل الأثر في الرقي الروحي للفرد ، وأما في طور الفكر ، فالحياة الدينية تبحث عن أصلها في نوع من الميتافيزيقا.

وأما في طورها الأخير وهو طور الاستكشاف فتتجاوز الحياة الدينية التصور المنطقي إلى الاتصال المباشر بالحقيقة الإلهية ، فيصبح الدين تمثلا فرديا للحياة والقدرة ، ويكسب الفرد شخصية حرة لا بالتحلل من قيود الشريعة ولكن بالكشف عن أصلها البعيد في أعماق شعوره هو[35] .

فمن هذا التحليل ندرك أن التصوف عند إقبال هو الدين في أرقى مراتبه

وأسس مدارجه ، فهو تجربة حية وحقيقية ، وخبرة واعية وعميقة.

وهذا التصوف يجد أصالته في نظر إقبال في عمق الحقيقة الإسلامية الصافية ولذلك فهو يقول: « ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهره في بيئة ما إلى عوامل خارجية عنها فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، فإنه لا فكرة من الأفكار ذات قيمة تكون لها سلطان على نفوس الناس إلا إذا كانت تمت إليهم بصلة ، فإذا جاء عامل العامل الخارجي أو ذاك ، ونسوا أن أية ظاهرة ، عقلية أو تطور عقلي في امة لا يكون لهما معنى ، ولا يفهمان لا في ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التي عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة[36] .

وإذا كان إقبال يؤكد أصالة التصوف الإسلامي فمما لا شك فيه أنه ليس ذلك التصوف الذي سماه التصوف التزهدي ، وانتقد أصالته وانتماءه للثقافة الإسلامية ، وإنما هو التصوف الإيجابي الذي يدعو إليه إقبال كأسمى مرتبة للحقيقة الدينية القرآنية ، ومن أبرز سمات هذا التصوف أنه يجمع بين التجربة النفسية الدينية العميقة والعمل والفعالية في الحياة ، وتتجلى هذه السمة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بينما يرفض الولي الصوفي الزاهد الرجوع إلى الأرض من مقام الشهود حيث يقول : « صعد النبي محمد العربي إلى السماوات العلى ، ثم رجع إلى الأرض ، قسما بربين لو أني بلغت هذا المقام لما عدت أبدا » نجد النبي صلى الله عليه وسلم يفضل العودة والرجوع من هذا المقام العظيم ، وهو رجوع مبدع ، فمقام الشهود عند الصوفي المتزهد غاية تطلب لذاتها ، أما عند النبي فهو يقضة للقوى الروحية بهدف تغيير النظام الإنساني ، وهذا أمر تابع كما يرى إقبال من رغبة النبي أن يرى رياضته الدينية قوة عالمية حية ، وبذلك تكون تجربته المحسوسة التي تحاول أن تحقق وجودها فيه ، ومن خلال نفوذ النبي في عالم العوائق بهدف التحكم فيه تتجلى نفسه فيعرفها ، ويزيل عنها ما يخيفها فتراه عين التاريخ [37] .

فالتصوف ليس مسلبة أو هروبا ، أو نزعة ذاتية منفصلة عن الواقع غائبة عن صناعة التاريخ ، بل هو رياضة حية مبدعة لعالم جديد ، يعود بعدها الصوفي يحمل للناس رسالة كما فعل النبي محمد صلى الله عليه و سلم.

وهذا التصوف الإيجابي الذي يدعو إليه إقبال يهدف إلى تربية الإنسان الكامل ، وهو المسلم المتمثل الشخصية رسول الله ﷺ ، فكلما ترقى الإنسان ، واقترب من الله من مقام (عبده). الذي بلغه النبي صلى الله عليه و سلم.

كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾ الإسراء/ 1 ، ومعناه أن يقترب الإنسان بإيمانه وأعماله الصالحة

من الله سبحانه وتعالى ليحقق ذاته ويبلغ مرتبة النيابة الإلهية على وجه الأرض.

وبهذا التصوف تكون حياة الإنسان حياة عمل مستمر ، وكفاح متواصل ومتجدد ، وهذا التصوف هو ثورة على الواقع المتردي للمسلم أن يرى في نفسه الروح ، وينشئ في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته ، وينشئ عالما جديدا »(38) .

ويحدثنا الأستاذ العقاد عن تصوف إقبال فيقول: « وحيثما انقسمت الصوفية قسمين ، كان إقبال إلى جانب أفضلهما وأصلحهما إلى العملوإذكاء النخوة ، وشحذ الهمة ، وايقاض الضمير » ، ثم يقول: « هناك الصوفية التي تؤمن بالثبوت ، وهناك الصوفية التي تؤمن بالفناء ففي أي الجانبين إقبال؟ في جانب الثبوت.

وهناك الصوفية التي تحسب العالم وهما باطلا وخدعة مزدراة ، والصوفية ترى في العالم مظهرا لجمال الله وإرادته وحكمته ، ففي الجانبين إقبال ؟ في جانب الحكمة والإرادة والجمال (39).

الهوامش:

1. ينظر: أبو العلاء عفيفي ، **التصوف الثورة الروحية في الإسلام** ، دار المعارف ، 1963 ، ص 56
2. ينظر: محمد الغزالي ، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب** ، دار الشروق ، 1997 ، ص 127.
3. يعدها المفكر محمد سعيد جمال الدين كتائب كامنة في الحضارة الإسلامية ، أنظر: محمد سعيد جمال الدين ، **نقوش فارسية على لوحة عربية** ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، 2000 ، ص.07 وما بعدها.
4. ينظر: محسن عبد الحميد ، **تجديد الفكر الإسلامي** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، بدون مكان نشر ، 1996 ، ص 77.
5. عبد الرحمان ابن خلدون ، **المقدمة** ، دار القلم ، بيروت ، 1992 ، ص 467.
6. د جاويد إقبال ، **إقبال والتصوف** ، محاضرة ، ضمن كتاب أفكار إقبال ، مهرجان سفارة الباكستان بدمشق 1987 ، ص12 .
7. ينظر: على سبيل المثال كتاب : لوينولد الن ، نيكلسون ، **الصوفية في الإسلام** ، ترجمة ، نور الدين شريبت ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1951 ، ص5 ـ 28
8. ينظر: محسن عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص 74 ـ 75. وينظر في علاقة التصوف الإسلامي بغيره من الأديان والفلسفات: التصوف الصورة الروحية في الإسلام ، ص 56 ـ 84.
9. ركائز الإيمان ، 137.
10. المرجع نفسه.
11. المرجع نفسه.
12. المرجع نفسه.
13. ينظر: جاويد إقبال ، مرجع سابق ، ص13 .
14. ينظر: د. أبو الوفاء التفتازاني ، **مدخل إلى التصوف الإسلامي** ، القاهرة ، 1794 ، ص 227.
15. ينظر: محسن عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص 79.
16. محمد اقبال ، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز** ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، دار المعارق ، مصر ، 1956 ، ص 11.
17. ينظر: خليفة عبد الحكيم ، **فكر إقبال** ، جامعة عليكره ، 1977 ، ص 274 ـ 275.
18. فلسفة إقبال الدينية ص.14.
19. عبد الوهاب عزام ، **محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره** ، بدون دار نشر ، بيروت ، 1972 ، ص 85
20. محمد اقبال ، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز** ، مرجع سابق ، ص 11.

21. ينظر: د. علي الشابي ، **مباحث في علم الكلام والفلسفة** ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، 1977 ، ص 177
22. محمد اقبال ، **تجديد التفكير الديني** ، ترجمه عباس محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1968 ، ص 173.
23. محمد اقبال ، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز** ، مرجع سابق ، ص11
24. . المصدر نفسه ، ص12.
25. أبو العلاء عفيفي ، مرجع سابق ، ص187.
26. ينظر: عبد الوهاب عزام ، مرجع سابق ، ص 85 ـ 87.
27. ينظر: محمد اقبال ، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز** ، مرجع سابق ، ص. 12 ، وينظر: محي الدين بن عربي ، **فصوص الحكم** ، تحقيق أبو العلاء العفيفي ، القاهرة ، 1946 ، ص9 ـ 10
28. عبد الوهاب عزام ، مرجع سابق ، ص 64
29. المصدر نفسه.
30. ينظر: أبو القاسم قشيري ، **الرسالة القشيرية** ، بدون مكان نشر ، القاهرة ، 1972 ، ص 61 ـ 62 ،
31. عبد الوهاب عزام ، مرجع سابق ، ص62.
32. محمد اقبال ، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز** ، مرجع سابق ، ص 12.
33. المصدر نفسه ، ومن انتقادات إقبال للإتحاد والفناء في ذات الله ما قاله على لسان الحلاج: « سكر الأحبة في فراغ الكؤوس ، وإنما العدم جهل بالمعرفة ، يا من تبغي في الفناء هدفك ، إن المعدوم لا يمكن أن يكتشف الموجود (الله) ، ينظر: رسالة الخلود ، ص237.
34. ينظر: د. محمد جلال شرق ، **دراسات في التصوف الإسلامي** ، شخصيات ومذاهب ، دار النهضة العربية ، بيروت 1980 ، ص.428 ـ 429.
35. محمد اقبال ، **تجديد التفكير الديني** ، مرجع سابق ، ص 209.
36. محمد اقبال ، **تطور ما وراء الطبيعة في فارس** ، ترجمة حسين مجيب المصري ، المطبعة الانجلو مصرية القاهرة ، 1986ص 96.
37. محمد اقبال ، **تجديد التفكير الديني** مرجع سابق ، ص142.
38. ينظر:أبو حسن الندوي ، روائع إقبال ، مطبعة دار الشهاب الجزائر ، بدون تاريخ نشر ، ص 101.
39. عباس محمود العقاد ، **فريضة إسلامية** ، مقال ضمن كتاب إقبال العرب على دراسات إقبال ، 1988

قائمة المراجع:

1. أبو العلاء عفيفي ، **التصوف الثورة الروحية في الإسلام** ، دار المعارف ، 1963 .
2. محمد الغزالي ، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب** ، دار الشروق ، 1997 .
3. يعدها المفكر محمد سعيد جمال الدين كتائب كامنة في الحضارة الإسلامية ، أنظر: محمد سعيد جمال الدين ، **نقوش فارسية على لوحة عربية** ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، 2000.
4. محسن عبد الحميد ، **تجديد الفكر الإسلامي** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، بدون مكان نشر ، 1996.
5. عبد الرحمان ابن خلدون ، **المقدمة** ، دار القلم ، بيروت ، 1992 .
6. د جاويد إقبال ، **إقبال والتصوف** ، محاضرة ، ضمن كتاب أفكار إقبال ، مهرجان سفارة الباكستان بدمشق . 1987
7. على سبيل المثال كتاب : لوينولد الن ، نيكلسون ، **الصوفية في الإسلام** ، ترجمة ، نور الدين شريبت ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1951 .
8. محسن عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص 74 ـ 75. وينظر في علاقة التصوف الإسلامي بغيره من الأديان والفلسفات: التصوف الصورة الروحية في الإسلام .
9. أبو الوفاء التفتازاني ، **مدخل إلى التصوف الإسلامي** ، القاهرة ، 1794 .
10. محمد اقبال ، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز** ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، دار المعارق ، مصر ، 1956 .

11. خليفة عبد الحكيم ، **فكر إقبال** ، جامعة عليكره ، 1977 .
12. عبد الوهاب عزام ، **محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره** ، بدون دار نشر ، بيروت ، 1972 .
13. ينظر: د. علي الشابي ، **مباحث في علم الكلام والفلسفة** ، دار بوسلامة للطباعة والنشر ، تونس ، 1977 .
14. محمد اقبال ، **تجديد التفكير الديني** ، ترجمه عباس محمود ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1968
أبو القاسم قشيري ، **الرسالة القشيرية** ، بدون مكان نشر ، القاهرة ، 1972 .
15. د. محمد جلال شرق ، **دراسات في التصوف الإسلامي** ، شخصيات ومذاهب ، دار النهضة العربية ، بيروت 1980 .
16. محمد اقبال ، **تطور ما وراء الطبيعة في فارس** ، ترجمة حسين مجيب المصري ، المطبعة الانجلو مصرية القاهرة ، 1986.
17. ينظر:أبو حسن الندوي ، روائع إقبال ، مطبعة دار الشهاب الجزائر ، بدون تاريخ نشر .
18. عباس محمود العقاد ، **فريضة إسلامية** ، مقال ضمن كتاب إقبال العرب على دراسات إقبال ، 1988